فنّ المقامات في الأدب العربيّ

دلالتها في اللّغة والاصطلاح:

(بديع الزّمان هو أوّل من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحيّ بين الأدباء، إذ عبّر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعها تصوّر أحاديث تُلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث. وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة يتأنّق في ألفاظها وأساليبها، ويتّخذ لقصصه جميعا راويا واحدا هو عيسى بن هشام، كما يتّخذ لها بطلا واحدا هو أبو الفتح الإسكندريّ الذي يظهر في شكل أديب شحّاذ، لا يزال يروّع النّاس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم)[1].

(المقامة قصّة وجيزة أو حكاية قصيرة مبنيّة على الكُدْيَةِ (الاستعطاء)، وعناصرها ثلاثة:

1. راوية ينقلها عن مجلس تحدث فيه.
2. مُكْدِيٌّ (بطل) تدور القصّة حوله وتنتهي بانتصاره في كلّ مرّة.
3. مُلْحَةٌ (نكتة، عقدة) تُحاك حولها المقامة؛ وقد تكون هذه الملحة بعيدة عن الأخلاق الكريمة وأحيانا تكون غثّة أو سمجة. وتُبنى المقامة على الإغراق في الصّناعة اللّفظيّة خاصّة والصّناعة المعنويّة عامّة)[2].

(المقام والمقامة كالمكان والمكانة، موضع القيام فاتّسع فيهما حتّى استعملا استعمال المكان والمجلس [...] ثمّ قيل لما يُقام فيها من خطبة أو شبهها مقامةً، كما يقال له مجلس. ويقال مقامات الخطباء ومجالس القصّاص، كما يسمّى الجالسون فيها مقامة)[3].

(يقول الشّريشيّ في شرحه لمقامات الحريريّ: "المقامات المجالس، واحدتها مقامة، والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمّى مقامة ومجلسا، لأنّ المستمعين للمحدّث ما بين قائم وجالس، ولأنّ المحدّث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى". قال الأعلم: المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير، والبديع نفسه يبيّن ذلك بقوله في المقامة الوعظيّة: "قال عيسى بن هشام: فقلت لبعض الحاضرين: مَن هذا؟

---

[1] شوقي ضيف: المقامة، دار المعارف، ط 3، مصر، ص: 8.

[2] عمر فرّوخ: الرّسائل والمقامات عبد الحميد الكاتب بديع الزّمان الحريريّ، منشورات مكتبة منيمنه، ط 2، بيروت، 1950، ص: 21.

[3] أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ: مقامات الزّمخشريّ، دار الكتب العلميّة، ط 1، بيروت، 1982، ص: 16، الهامش.

فقال: شخص قد طرأ لا أعرفه، فأصبر عليه إلى آخر مقامته، لعلّه يُنْبِئُ عن غلامته". فالمقامات جمع مقامة، وهي: كالمقام، اسم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيه") [4].

(المقامة في مدلولها الاصطلاحيّ المعروف هي "قصّة قصيرة بطلها نموذج إنسانيّ مُكِدٌّ ومتسوّل لها راوٍ أو تقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة أدبيّة أو مسألة دينيّة أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لونا من ألوان النّقد أو الثّورة أو السّخرية في إطار من الصّنعة اللّفظيّة والبلاغيّة") [5].

(أمجرّد حديث هو أم هو حكاية أم قصّة أم أقصوصة أم مقامة؟ أسردٌ هذا الأثر أم غير سرد؟ وإذا كان سردا، فهل هو سرد روائيّ أم دراميّ أم هل هو مجرّد نسيج لغويّ بليغ ورفيع أم تأنّق لفظيّ وزخرف بيانيّ وبديعيّ؟ هل هو عمل منتمٍ إلى الأدب أم هو مجرّد لعب وهرطقة وشعوذة؟) [6].

مبدعها ومخترعها في الأدب العربيّ:

(بديع الزّمان هو مخترع الفنّ المقاميّ والأب الشّرعيّ له) [7].

(فُتن النّاس بمقامات بديع الزّمان افتتانا شديدا. وليس هناك إلاّ البديع نفسه، فهو أبو المقامة في الأدب العربيّ، صاحب الفضل في إنشائها. ويؤيّد ذلك الحريريّ أبو محمّد القاسم بن عليّ البصْريّ 446 – 516هـ في مقدّمة مقاماته، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا إلى بديع الزّمان، وعلامة همذان، وكذلك جعل الثّعالبيّ في "اليتيمة" البديع أبا عذرتها، والواضع لأصولها وخطّتها) [8].

(نربط بين دروسه وبين أحاديث ابن دريد، لأنّها هي التي ألهمت مقامتَه، يقول الحُصْرِيُّ: إنّه "لمّا رأى أبا بكر محمّد بن الحسين بن دريد الأزْديّ أغربَ بأربعين حديثا، وذكر أنّه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها إلى الأفكار والضّمائر، في معارض عَجَمِيَّة، وألفاظ

---

[4] عبد المنعم خفّاجي: أبو الفتح الإسكندريّ بطل مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ وشخصيّته المجهولة، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط 1، القاهرة، 1996، ص: 10.

[5] عبّاس هاني الچرّاح: المقامات العربيّة وآثارها في الآداب العالميّة، مؤسّسة دار الصّادق الثّقافيّة طبع نشر توزيع، الرّضوان للنّشر والتّوزيع، ط 1، الأردن، 2014، ص: 12.

[6] المتكلم في السرد العربي القديم، أعمال ندوة بإشراف محمّد الخبّو ومحمّد نجيب العمّاميّ، كلّية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منّوبة، تونس، 2011، ص: 197.

[7] خالد بن محمد الجديع: الدراسات السردية الجديدة قراءة المقامة أنموذجا، مركز بحوث كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2007، ص: 23.

[8] عبد المنعم خفّاجي: أبو الفتح الإسكندريّ بطل مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ وشخصيّته المجهولة، ص: 55.

حوشيّة... عارضه بأربعمائة مقامة في الكُدية، تذوب ظرفا، وتقطر حسنا". وقد رأينا في غير هذا الموضع أنّ كلمة مقامة معناها الحديث، وفي هذا ما يربط أدقّ الرّبط بين العملين، ويستطيع القارئ أن يرى ذلك في وضوح إذا رجع إلى كتاب الأماليّ لأبي عليّ القاليّ، وهو الكتاب الذي يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين.

ولا تدور هذه الأحاديث على الكُدية، كما هو الشّأن عند بديع الزّمان، ومع ذلك فالصّلة بين العملين واضحة، وذلك أنّ أحاديث ابن دريد تُصاغ في شكل رواية وسند يتقدّمها، ثمّ هي غالبا مسجوعة، وتمتلئ باللّفظ الغريب، فهي أحاديث أُلّفت لغرض تعليم النّاشئة اللّغةَ، بالضّبط كما حاول بديع الزّمان في أحاديثه، وإن كانت خفيفة رشيقة [9].

غايتها:

(ليس في القصّة عقدة ولا حَبُكَة، وأكبر الظّنّ أنّ بديع الزّمان لم يُعْنَ بشيء من ذلك، فلم يكن يريد أن يؤلّف قصصا، إنّما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلّمهم أساليب اللّغة العربيّة وتفقهم على ألفاظها المختارة. فالمقامة أُريدَ بها التّعليمُ منذ أوّل الأمر، ولعلّه من أجل ذلك سمّاها بديع الزّمان مقامة، ولم يسمّها قصّة ولا حكاية، فهي ليست أكثر من حديث قصير، وكلّ ما في الأمر أنّ بديع الزّمان حاول أن يجعله مُشَوِّقًا فأجراه في شكل قصصيّ) [10].

(كلّ الذي قصده أن يضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللّغة العربيّة المنمّقة، كي يقتدروا على صناعتها، وحتّى يتيح لهم أن يتفوّقوا في كتاباتهم الأدبيّة. ووضع ذلك في صورة قصصيّة، يكون فيها حوار محدود، ويكون فيها ما يُشوِّقُ ويجذب النّاشئة للاطّلاع على ما يؤلّفه ويصوغه، واختار البطل أديبا شحّاذا ليتمّ له التّشويق) [11].

عدد مقامات الهمذانيّ:

(يقدّم كيليطو عند دراسته لمقامات الحريريّ مقترحا توصّل إليه من خلال تتبّع بنية المقامة الحريريّة، هو أنّ الحريريّ كتب واحدة وخمسين مقامة لا خمسين، وهو ينطلق في هذه الفرضيّة من أنّ الوعظ يحضر كلّ عشر مقامات، فهو ظاهر في: الأولى، والحادية عشرة، والحادية والعشرين، والحادية والثّلاثين، والحادية

[9] شوقي ضيف: المقامة، ص: 17.

[10] شوقي ضيف: المقامة، ص: 8.

[11] شوقي ضيف: المقامة، ص: 9.

والأربعين، والحادية والخمسين، وهذه الأخيرة هي الجزء الثّاني من المقامة الخمسين، بيد أنّها لم تحمل عنوانا رغم اشتمالها على البنية المقاميّة كاملة)[12].

(يصرّح الحُصْرِيُّ بأنّ بديع الزّمان أنشأ أربعمائة مقامة، ومن قبله صرّح بذلك الثّعالبيّ في اليتيمة، بل صرّح به بديع الزّمان في بعض رسائله. وربّما كان ذلك غلطا من ناسخ الرّسائل، فمجرّد معارضة بديع الزّمان لابن دريد في أحاديثه الأربعين يقتضي أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضا. ويظهر أنّه صنع في نيسابور أربعين مقامة فقط، ثمّ رأى أن يزيد عليها // مقامات أخرى بعد مبارحته لها، فزاد ستّا في مديح خلف بن أحمد في أثناء نزوله عنده/ كما زاد خمسا أخرى. وبذلك أصبحت المقامات نيفا وخمسين. على كلّ حال أنشأ بديع الزّمان مقامته معارضة لأحاديث ابن دريد، وإنّ من يقرأ الأماليّ ويعقّب بديع الزّمان في عمله يرى الصّلة واضحة تمام الوضوح بين الصّنيعين. وإنّ المقامة الأسديّة عنده لَتُعَدُّ صيغة نهائيّة لصفة الأسد في ذيل الأماليّ، وكذلك الشّأن في المقامة الحمدانيّة وما جاء بها من صفة الفرس فإنّها تكميل وتتميم لما جاء في الأماليّ من وصف الفرس)[13].

الهمذانيّ والسّجع:

(هو يُظهر براعة فائقة في استخدامها، حقّا إنّه لا يلتزمها دائما، ولكنّه يجنح إليها غالبا، فالأصل عنده أنْ يسجع، ولا يترك السّجع إلاّ نادرا، وكانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة، وبديهة حاضرة، وذكاء حادّ، وإحساس دقيق باللّغة ومترادفاتها وأبنيتها واستعمالاتها المختلفة. فما هي إلاّ أنْ يتوجّه إلى الكلام، حتّى تنهال عليه الألفاظ من كلّ جهة، كأنّها السّيول تفد من كلّ صوب، وكان يعرف كيف يفيد من هذه السّيول، فهو يضع الكلمات مواضعها في دقّة وبراعة منقطعة النّظير. ومن هنا كان سجعه في جملته خفيفا رشيقا، فليس فيه تكلّف، وليس فيه صعوبة ولا جفاء فهو دائما كأنّما يستمدّ من فَيضِ لغويّ لا ينفد. وتراه إزاء المعنى، وكأنّه الصّائد الماهر الذي يُحسن إلقاء شباكه على صيده، فلا يخطئه، بل يصيبه دائما، ويخيّل إليك كأنّه يجمع نفسه جمعا إزاء الكلمات اللّغويّة، فإذا هو قد أحصاها إحصاءً، وإذا هو يجيء بما يوافقه ويريده منها وكأنّه يمسك بزمامه)[14].

الهمذاني والفكاهة:

---

[12] خالد بن محمد الجديع: الدراسات السردية الجديدة قراءة المقامة أنموذجا، ص: 26.

[13] شوقي ضيف: المقامة، ص: 17، 18.

[14] شوقي ضيف: المقامة، ص: 32، 33.

(يمسح على ذلك بروح فكاهيّة بديعة تتخلّل مقاماته، فتجعلها أكثر قبولا لدى النّفوس، ويظهر أنّ البديع كان ينطوي على مرح في داخله، فسكبه في مقاماته، وهو يتّخذ صورا مختلفة. وقد تمضي المقامة وكلُّها دُعابة وفكاهة. ونحن نسوق للقارئ مقاماته "المَضيريّة" نسبة إلى المضيرة و(هي لحم يطبخ باللّبن المضير أي الحامض) ليطّلع منها على جملة خصائصه وما يطبع به أساليبه من مهارة)[15].

(هذه المقامة تعرض على البديع، بكلّ ما أُوتي من خفّة ورشاقة لا من حيث انتخاب الألفاظ والعبارات حسب، بل أيضا من حيث الرّوح الفكاهيّ الذي طبع به مقاماته، فأصبحت حَرِيَّةً بأنْ تُروى في المجالس، ويتلقّفها الطّلاّبُ في الأقاليم الإسلاميّة المختلفة؛ إذ يقرءون فيها ما يسرّي عن نفوسهم، // ويرسم الضّحك على شفاههم. ولم تكن نفس البديع مطويّةً دائما على الضّحك والفكاهة، فمن يتابعه في رسائله يجده أحيانا يُفضي إلى ضروب من التّشاؤم. وقد يكون مرجع الجانبين عنده حدّة في حسّه جعلته مرهف الشّعور دقيقَه. وهي حدّة كان يرافقها ذكاءٌ شديد وبديهة حاضرة، فأعدّه ذلك لِيُطْرِفَ قرّاءَه بدعاباته وفكاهته)[16].

عن الحكاية / القصّة في المقامة:

(فهو [عبد الفتّاح كيليطو] يقرّر بعد طول الصّحبة أنّ البنية السّرديّة المميّزة للجنس المقامي تكمن في كونه يقوم على عنصر التّعرّف[17]، والحقّ أنّ هذه النّتيجة غير صحيحة، أو على الأقلّ هي محلّ نظر – على حدّ تعبير الأسلاف – فهناك مقامات كثيرة لبديع الزّمان ومن جاء بعده لا // تَعَرُّفَ فيها، بل قد لا تحتوي حكايةً أصلا، ولم يستطع كيليطو حتّى على الرّغم من الجهد الذي بذله عند الحديث عن المقامة الوحشيّة أن يقنعنا بوجهة نظره)[18].

---

[15] شوقي ضيف: المقامة، ص: 33.

[16] شوقي ضيف: المقامة، ص: 40، 41.

[17] (مهما يكن تنكّر أبي الفتح، ينتهي الرّاوي دائما بالتّعرّف عليه، يُفترض التّعرّف عبورا من المعرفة الوهميّة إلى معرفة حقيقيّة، لكن هذه الأخيرة ليست ممكنة إلاّ إذا كانت معرفة سابقة على التّجربة التي جرى وصفها. وبعبارة أخرى، إذا تعرّف الرّاوي على أبي الفتح، فلأنّه كان يعرفه من قبل، وهذه المعرفة معروضة في مقامات عديدة). عبد الفتّاح كيليطو: المقامات السّرد والأنساق الثّقافيّة، ترجمة عبد الكبير الشّرقاويّ، دار توبقال للنّشر، ط 2، المغرب، 2001، ص: 102.

[18] خالد بن محمد الجديع: الدراسات السردية الجديدة قراءة المقامة أنموذجا، ص: 26، 27.

(بدأت مسيرة كيليطو مع المقامة العربيّة في أوّل الثّمانينات من القرن الميلاديّ المنصرم، حيث درس في كتابه (الأدب والغرابة) ألوانا من السّرد العربيّ القديم دراسة بنيويّة، ولأنّ المقامة جنس سرديّ فقد برزت بشكل واضح في عمله)[19].

(أوّل ما يَلفت القارئَ في مقامة البديع أنّها وُضعت في شكل حوار قصصيّ، وهو حوار يمتدّ بين عيسى بن هشام الرّاوي وأبي الفتح الإسكندريّ البطل، أو الأديب المحتال الذي يعرف كيف يلعب بعقول النّاس، ويستخرج منهم الدّراهم عن طريق خِلابته وفصاحته. والحوار يأتي على الهامش، فالقصد الأوّل في مقامة البديع إنّما هو الإتيان بجاميع من الألفاظ والأساليب التي تخلب السّامعين وتخترق بروعتها حجاب قلوبهم. فليس للبديع غاية قصصيّة بالمعنى الدّقيق، وإنّما غايته أنْ يصوغ ألفاظا، أو قل أنغاما من الكلام ويصبغها بالألوان الفنيّة التي كانت معروفة في عصره. ومن أجل ذلك اختار صيغة السّجع لمقاماته، وكانت هي الصّيغة التي يعجب بها عصره، أُعجب بها عند ابن العميد في رسائله، كما أُعجب بها عند غيره من تلاميذه، فكان لا بدّ للبديع كي ينال استحسان معاصريه من أن يعتمد اعتمادا على هذه الوسيلة، ويستخدمها في كلّ ما ينمّق من مقاماته ويوشّي من أحاديثه)[20].

(إنّ هذه القصّة الحواريّة القصيرة، ذات المنهج الفنّيّ الملتزم والصّياغة الطّريفة، والصّيغة الجديدة، والفكرة السّاسانيّة، التي دُعيت مقامة، قد أنشأها بديع الزّمان الهمذانيّ لتُجابهَ مطالب الحياة الفنّيّة والأدبيّة والفكريّة والاجتماعيّة والسّياسيّة المتجدّدة في عصره)[21].

(لقد قلنا، دون عناء كبير، إنّ المقامة حكاية. تبدأ المصاعب حين يتعلّق الأمر بموقَعَتِها إزاء الأنماط الأخرى للحكاية التي عرفتها الثّقافة العربيّة، وحين يتعلّق الأمر بدراسة العناصر السّرديّة المكوّنة لها...)[22].

موضوعاتها:

(وتقدّم بديع الزّمان في مقامته فأقام لهم معارض منسّقة من ذلك، وتبعه الحريريّ، وتوسّع مَن خلفوهما بالمقامة فأجروها لا في تعليم الأساليب الأنيقة حسب، بل أيضا في مختلف الشّؤون الثّقافيّة، فحمّلوها نحوًا وفقهًا وطبًّا، ووضعوا فيها مناظرات خياليّة، كما وضعوا بها أحيانا جوانب من مجتمعاتهم؛ ولكنّهم لم

---

19 خالد بن محمد الجديع: الدراسات السردية الجديدة قراءة المقامة أنموذجا، ص: 18.

20 شوقي ضيف: المقامة، ص: 32.

21 عبد المنعم خفّاجي: أبو الفتح الإسكندريّ بطل مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ وشخصيّته المجهولة، ص: 57.

22 عبد الفتّاح كيليطو: المقامات السّرد والأنساق الثّقافيّة، ترجمة عبد الكبير الشّرقاويّ، دار توبقال للنّشر، ط 2، المغرب، 2001، ص: 07.

يفكّوا عنها أبدا قيود اللّفظ وأسجاعه، وما رسفت فيه من أغلال البديع وأثقال اللّغة وألفاظها العويصة، بل كان ذلك مقياس المهارة والبراعة)[23].

(موضوع المقامة عند بديع الزّمان ليس واحدا، حقّا أكثر المقامات موضوعها الكدْيةُ والاستجداءُ؛ إذ يظهر أبو الفتح الإسكندريّ في شكل أديب شحّاذ يخلب الجماهير ببيانه العذب، ويحتال بهذا البيان على استخراج الدّراهم من جيوبهم. وهو يتراءى بهذه الصّورة في بلدان مختلفة، ولعلّ هذا ما دفع بديع الزّمان إلى أنْ يسمّي المقامات بأسماء البلدان، ومعظمها بلدان فارسيّة، وقد // يترك ذلك ويسمّي المقامة باسم الحيوان الذي يصفه كالأسديّة، أو باسم الأكلة التي يُلمّ بها أبو الفتح كالمضيريّة نسبة إلى أُكلة المضيرة، وأحيانا يسمّيها باسم الموضوع الذي يعرض له كالوعظيّة؛ لأنّها تدور حول وعظ، والقريضيّة لأنّها تدور حول القريض والشّعر، والإبليسيّة لأنّها تتّصل بإبليس، والملوكيّة لأنّها تتّصل بملك هو خلف بن أحمد، وهكذا.

ومعنى ذلك أنّ بديع الزّمان لم يصطلح في تسمية مقاماته على سنّة واحدة، ولعلّ هذا نفسه يشير إلى أنّ موضوعاتها تختلف، **فهي كما قلنا لا تجري كلّها في الكُدْيَة، بل تذهب مذاهب شتّى، تتّحد فيها الغاية، وهي رصف العبارات الأدبيّة المنمّقة)**[24].

(وكأنّ الشّكل القصصيّ ليس هدفها، فهي إنّما تتّخذه خيطا ينسج حوله هذا الوشي من الأساليب المسجوعة، ومن هنا لم يعيّن البديع لنفسه فيها خطّة مرسومة، ومن ثمّ اختلفت الموضوعات. ولعلّ أوّل ما يسترعي النّظر من ذلك مقاماته السّتّ التي كتبها ليُشيد فيها بخلف بن أحمد صاحب سجستان فإنّه لم يجعل موضوعها الكُدية، وإنّما نحا بها نحو مدحه)[25].

(من الموضوعات في مقامة البديع موضوع الوعظ الدّينيّ، فقد كتب فيه مقامتين هما المقامة الأهوازيّة والمقامة الوعظيّة)[26].

(هناك مقامة تسمّى المقامة العلميّة، وفيها نراه يصف لطالب العلم طريقه الصّعب، وما ينبغي أن يستعين به عليه حتّى يحصل على مرامه منه، فلا بدّ له من الدّأَبِ والحفظ والدّرس والفهم والتّحقيق والتّعليق، حتّى يفتق سمعه، وحتّى يتغلغل العلم إلى صدره. ويمكن أن نسلك في هذا الجانب التّعليميّ المقامة الأسديّة التي

---

[23] شوقي ضيف: المقامة، ص: 10.

[24] شوقي ضيف: المقامة، ص: 24، 25.

[25] شوقي ضيف: المقامة، ص: 25.

[26] شوقي ضيف: المقامة، ص: 28.

جمع فيها كلّ ما استطاع من أوصاف للأسد، والمقامة الحمدانيّة، وهي تصف // منظرا حدث في حياة سيف الدّولة المتوفّي سنة356هـ، وفيها يعرض علينا أبو الفتح أوصافا مختلفة للفرس، وكأنّه ينشد متنا لغويّا فيه وفي شياته. ونضع في هذا الاتّجاه أيضا المقامة الغيلانيّة التي يظهر فيها الشّاعر الأمويّ ذو الرّمّة وينشد بعض شعره. والمقامتان الأخيرتان تلفتاننا إلى أنّ المقامات الهمذانيّة قد تعرض لصور من الحياة الماضية، ومثلها المقامة الصّيمريّة التي تتحدّث عن محمّد بن إسحق الصّيمريّ المتوفّي سنة 275 للهجرة)[27].

الواقع في المقامات:

(تتخلّل المقامات صور مختلفة عن حياة النّاس المعاصرين له وأطعمتهم وأَكْسِيَتِهِم، وخمرهم ولهوهم وسلوكهم ونفاقهم. وكلّ ذلك شاهد ناطق بأنّ **مقامات البديع تمثّل حياة المجتمع لعصره خير تمثيل**)[28].

العجيب والغريب في المقامات:

(يتضمّن خطاب أبي زيد "لقد بلوتُ من العجائب ما لم يره الرّاؤون، ولا رواه الرّاوون" تمييزا بين صنفين من العجائب. هناك أوّلا الشّيء العجيب الذي تمّ الاطّلاع عليه والذي صار، على الرّغم من كونه غير اعتياديّ، مُرَوَّضًا // ومستأنسا إلى حدٍّ كبير، فالعجيبة المتعرّف عليها والتي تناقلتها الألسن تفقد كثيرا من قوّتها وطرافتها. وهناك ثاني الشّيء العجيب الذي لم يطّلع عليه أحد والذي لم يخضع بعد للمعرفة أي لم يصنّف ولم يرتّب داخل منظومة، هذا الصّنف أكثر طرافة وأكثر إثارة للفضول الفكريّ)[29].

(تحيل مقامة ابن بطلان على قضايا غرائبيّة يفرد لها كيليطو مبحثا للتّحاور معها، ويلتمس أسباب ذلك، ثمّ يستخدم أسلحة جديدة يربط من خلالها هذا العمل بكليلة ودمنة والحكاية الخرافيّة)[30].

الحيلة والأسلوب في المقامة:

(ليست المقامة إذن قصّة وإنّما هي جنس أدبيّ بليغ، وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصّة، فليس فيها من القصّة إلاّ ظاهر فقط، أمّا هي في حقيقتها فحيلة يُطْرِفُنا بها بديع الزّمان وغيره لنطَّلعَ من جهة على حادثة معيّنة، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة، بل إنّ الحادثة التي تحدث للبطل لا أهمّية لها، إذ ليست هي

---

[27] شوقي ضيف: المقامة، ص: 28، 29.

[28] شوقي ضيف: المقامة، ص: 30.

[29] عبد الفتاح كيليطو: كتاب الغائب دراسة في مقامة للحريري، دار توبقال للنّشر، ط 3، المغرب، 2007، ص: 52، 53.

[30] خالد بن محمد الجديع: الدراسات السردية الجديدة قراءة المقامة أنموذجا، ص: 25، للتّعمّق في فهم القضيّة يُنظر: عبد الفتاح كيليطو: المقامات: السّرد والأنساق الثّقافيّة، ص: 121، وما بعدها.

الغاية، إنّما الغاية التّعليم والأسلوب الذي تُعرض به الحادثة، ومن هنا جاءت غلبة اللّفظ على المعنى في المقامة، فالمعنى ليس شيئا مذكورا، إنّما هو خليط ضئيل تُنشر عليه الغاية التّعليميّة)[31].

بلاغة اللّفظ في المقامة:

(المقامة منذ ابتكرها بديع الزّمان تنحو نحو بلاغة اللّفظ وحبّ اللّغة لذاتها فالجوهر فيها ليس أساسا، وإنّما الأساس العرَض الخارجيّ والحِلْيَة اللّفظيّة، وكان لذلك وجه من النّفع فإنّ الأدباء انساقوا إلى الثّروة اللّفظيّة، وأخذوا يبتكرون صورا جديدة للتّعبير ولكن في حدود سطحيّة)[32].

البطل والرّاوي في المقامة:

(لا يختلف باحث في أنّ هذا البطل من خيال بديع الزّمان، فلم يسبقه باسمه أحد، وإنّما هو الذي وضعه لمقاماته. فهو يجري في أكثرها، وإنّما نقول أكثرها، لأنّ هناك مقامات لم يرد ذكره فيها مثل المقامة الغَيلانيّة والبغداديّة. وهناك مقامات لا يظهر فيها أبو الفتح إلاّ في آخرها كالمقامة الإبليسيّة، ولكن الكثرة يتّضح فيها منذ أوّل الأمر)[33].

(الشّخصيتان الرّئيسيّتان في المقامات تتحرّكان خلال منظر وإن كان مُتَغَيِّرًا فهو دائما مألوف، ويجري تطوافهما على أرض صلبة لا يزعزعها عموما أيُّ اكتشاف مستجدّ. إنّهما لا يحطّان رحالهما في مملكة الآخَرِيَّةِ، والعادات الغريبّة التي تجعل الإنسان يُقَطِّبُ ويفتح عينيه دهشةً. لا علاقة بين سعيهما وسعي السّندباد الذي يواجه محيطا ذا تركيب وشكل مُحَيِّرَيْنِ، ومعجم غير ثابت، محيط للكائنات فيه أحجام غير معهودة وليس للظّواهر فيه أيُ ربط، إنْ لم يكن غياب البنية، و"اللاّتنظيم". ولا ينجح السّندباد دائما في تسمية الأشياء، وحين يتمكّن من ذلك تَتَكَشَّفُ التّسمية عن خدعة. وهكذا فما كان يعتقده جزيرة "إنّما هي سمكة كبيرة رست في وسط البحر فبنى عليها الرّمل فصارت مثل الجزيرة وقد نبتت عليها الأشجار")[34].

(وكما أنّ شخصيّة أبي الفتح بطل المقامات خياليّة فكذلك شخصيّة الرّاوي عيسى بن هشام، فهما جميعا من صنع البديع واقتراحه، وهو يبدأ كلّ مقامة بهذه الصّيغة الثّابتة: "حدّثني عيسى بن هشام، قال" وهي تدلّ

---

[31] شوقي ضيف: المقامة، ص: 9.

[32] شوقي ضيف: المقامة، ص: 9.

[33] شوقي ضيف: المقامة، ص: 23.

[34] عبد الفتّاح كيليطو: المقامات السّرد والأنساق الثّقافيّة، ص: 13.

دلالة قاطعة على أنّه حين حاول تأليف هذه المقامات كان في ذهنه أن يقلّد طريقة الرّواة بل بعبارة أدقّ كان في ذهنه أن يقلّد طريقة ابن دريد في أحاديثه)[35].

شخصيّة (أبو الفتح الإسكندريّ) في المقامة:

(وشخصيّة أبي الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصيّة رائعة حقّا، فهو بطل للوقف كلّه في المقامة، وهو - كما يصوّره الهمذانيّ - عالم وأديب وشاعر، وهو ناقد بليغ، ومغامر محتال ماهر، مشرّد في الآفاق، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلاّ الكُدية والاحتيال بكلّ أسلوب من أجل المال أو الطّعام، وهو إلى ذلك كلّه مجرّب حكيم خبير بالأيّام وصروفها، عَرَكَها وعرِكته، يجوب الآفاق ويخطب في الأندية ويهزّ النّاس بفصاحته وبلاغته)[36].

(وكنية أبي الفتح لعلّ البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته في مواقفه العجيبة في الكدية. أمّا وصف الإسكندريّ الذي لازمه فقد يكون معزّزا لذلك المعنى على أنّه نسبة إلى الإسكندر، فتكون فتوحات أبي الفتح في أموال // النّاس شبيهة بفتوحات الإسكندر، وقد يناقض ذلك أنّ أبا الفتح يكرّر في مقاماته قولَه "اسكندريّة داري"، نسبة إلى الإسكندريّة لا إلى الإسكندر الأكبر المقدونيّ 256 - 323 ق م... ويصحّ لنا أن نجمع بين الأمرين، فتكون نسبته إلى الإسكندريّة مقصودا بها الرّمز إلى شبهه في فتوحاته السّاسانيّة بفتوحات الإسكندر التي تنتسب إليه مدينته)[37].

(هناك رأي سائد أنّه شخصيّة أسطوريّة خياليّة محضة، كشخصيّة راوي المقامات عيسى بن هشام. يقول الحريريّ في مقدّمة مقاماته: كلاهما مجهول لا يُعرف، ونكرة لا تتعرّف. وهذا ما رجّحته [...])[38].

أركان المقامة:

(تعتمد المقامة - أيّة مقامة - على بعض الأركان والدّعائم التي تميّزها عن باقي ألوان النّثر العربيّ الأخرى... وهي - الرّاوي: وهو عند الهمذانيّ (عيسى بن هشام)، وعند الحريريّ (الحارث بن همّام). ويقوم الرّاوي برواية أحداث المقامة، ويسبق ذلك لفظ (حدّثنا)، والواضح أنّ الرّاوي هو نفسه المؤلّف، إذ إنّه وضع آراءه عن المجتمع والبيئة على لسان الرّاوي، لزيادة التّشويق والإثارة - البطل: هو (أبو الفتح الاسكندريّ) عند الهمذانيّ، و(أبو زيد السّروجيّ) عند الحريريّ، ووضع كاتب المقامة البطل على أساس كنيته ونسبه إلى

---

[35] شوقي ضيف: المقامة، ص: 24.

[36] عبد المنعم خفّاجي: أبو الفتح الإسكندريّ بطل مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ وشخصيّته المجهولة، ص: 57.

[37] عبد المنعم خفّاجي: أبو الفتح الإسكندريّ بطل مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ وشخصيّته المجهولة، ص: 57، 58.

[38] عبد المنعم خفّاجي: أبو الفتح الإسكندريّ بطل مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ وشخصيّته المجهولة، ص: 59.

مدينته، من دون ذكر اسمه، وهذا البطل يقوم بكلّ الأعمال التي تتطلّب الحيلة والخبث، من أجل الحصول على ما يريده، وهو على ذلك يقف على طرفيْ نقيض من الرّاوي. ويبلغ دهاء البطل أنّه يتخفّى بعدّة طرق، حتّى يصعب على الرّاوي معرفته، إلاّ في نهاية المقامة – الحدث (الموضوع): كان لكلّ مقامة حدث يشدّ إليها قرّاء المقامة والمستمعين إليها، ولعلّ الكدية هي الغرض المهمّ في المقامات، فنرى البطل يحثّ خطاه إلى حديث يجد الفريسة والصّيد السّهل، الذي يخدع بألفاظه وأسلوبه المنمّقين فيقع في الشّرك المنصوب له)[39].

تأثير الهمذانيّ والمقامة في الأدباء العرب:

(جاء بعد الهمذانيّ متأثّرا به، ومقلّدا له، عدد من الأدباء على اختلاف أقطارهم ومحتوى مقاماتهم، وهم: - أبو الأصبع عبد العزيز بن تمّام العراقيّ (توفّي ق 4هـ)، له مقامات في الكيمياء – أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السّعديّ (توفّي 405هـ)، له عدّة مقامات – أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان (توفّي 460هـ)، له مقامة في مسألة طبّيّة // - أبو النّصر عبد الله بن محمّد بن الحسين بن داود بن ناقيا (توفّي 485هـ)، له تسع مقامات – أبو حامد محمّد بن محمّد الغواليّ (توفّي 505هـ)، له مقامات صوفيّة... على أنّ أشهر من تأثّر بالهمذانيّ هو أبو محمّد القاسم بن عليّ بن محمّد الحريريّ (توفّي 516هـ)، إذ كتب خمسين مقامة، أشار في مقدّمتها أنّه اطّلع على مقامات الهمذانيّ، ومدح عمله. والملاحظ أنّ مقامات الحريريّ قد بذّت مقامات الهمذانيّ حتّى صارت شهرتها أوسع، وتقليدها أكثر)[40].

(على أنّ هناك مقامة ينبغي أن نقف عندها، لا لأنّها تعبّر عن العصر أو ما قبل العصر، ولكنْ لأنّها أوحت لبعض الأدباء بأعمال باهرة، وهي المقامة الإبليسيّة، وهي تدور على لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجنّ، إذْ ضلّت منه إبل، فخرج في طلبها، وما زال يطلبها حتّى حلّ في وادٍ خَضِرٍ، به أنهار وأشجار وأزهار، وشيخ جالس فسلّم عليه، وردّ السّلام، وأمره بالجلوس، فامتثل، وسأله: هل تروي من أشعار العرب شيئًا؟ فقال: نعم وأنشده لامرئ القيس ولبيد وطرفة، فلم يكرب لشيء من ذلك، وعرض عليه أنْ ينشده من شعره، فأنشده قصيدة لجرير. فعجب عيسى بن هشام من انتحاله قصيدة جرير، وبعد حوار قصير بينهما قال له إبليس: "ما أحدٌ من الشّعراء إلاّ ومعه معين منّا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وأنا الشّيخ أبو مرّة"، وغاب بعد هذا الكلام، ووجد عيسى بن هشام نفسه وحيدا. ولا ريب في أنّ هذه المقامة

---

[39] عبّاس هاني الجرّاح: المقامات العربيّة وآثارها في الآداب العالميّة، ص: 15، 16. وللتّوسّع في خصائص المقامة، يمكن العودة إلى: عمر فرّوخ: الرّسائل والمقامات عبد الحميد الكاتب بديع الزّمان الحريريّ، ص: 22 - 24.

[40] عبّاس هاني الجرّاح: المقامات العربيّة وآثارها في الآداب العالميّة، ص: 13، 14.

الطّريفة هي التي أوحت لابن شُهيد في الأندلس أن يكتب رحلته المشهورة في عالم ما وراء الطّبيعة، وهي الرّحلة المعروفة باسم "التوابع والزّوابع" ويقصد بها الجنّ والشّياطين إذ تراءى له شيطان، وقد أرْتجّ عليه في شعر ينظمه، فأجازه، وتعارفا، فطلب إليه ابن شُهيد أن يلقى شياطين الشّعراء والكتّاب السّابقين معه، فحمله على جناحه، ونزل به // واديَ الجنّ، حيث لقيهم. وكان كلّما لقي شيطانا لشاعر مشهور أنشده من شعر صاحبه، ثمّ من شعره الخاصّ، فيعجب به، ويجيزه اعترافا بمهارته الفنّيّة وقدرته البلاغيّة. ولقي شياطين الكتّاب كما لقي شياطين الشّعراء وعرض عليهم بعض رسائله، وخاصّة رسالته في الحلواء. وهو يتأثّر فيها بالمقامة المَضيريّة لبديع الزّمان، ولا نلبث أن نراه يلتقي بشيطانه المسمّى زبدة الحقب، ويحاول أن يجاريه في بعض أوصافه التي جاءت في المقامات، وما يزال به حتّى يعلن له تفوّقه وإحسانه، ويجيزه على إبداعه وافتنانه)[41].

(يذهب بعض الباحثين إلى أنّ الذي ألهم أبا العلاء "رسالة الغفران" هو ابن شهيد في رحلته المذكورة، لأنّها هي الأخرى رحلة فيما وراء الطّبيعة، إلاّ أنّها ليست في واد من وديان الجنّ، وإنّما هي في الجنّة وعلى الصّراط ويوم البعث، ولكنّها على كلّ حال رحلة فيما وراء المُشَاهَدِ المحسوس. ويزعم آخرون أنّ ابن شهيد هو الذي استوحى رسالة الغفران رحلته، ولعلّ في هذا الرّأي الذي قدّمناه ما يُبطل نزاع هؤلاء المتخاصمين، فالمسألة تُردّ إلى القرن الرّابع وإلى بديع الزّمان، فهو الذي استغلّ أوّلا فكرة شياطين الشّعراء التي قرأها في كتب الأدب العربيّ، واستخرج منها مقامته الإبليسيّة، ثمّ خلفه ابن شهيد وأبو العلاء في القرن الخامس، فألّف كلٌّ منهما رحلة فيما وراء عالمنا، واستمدّ ابن شهيد مباشرة من البديع ومقامته، فلم يدخل إلاّ تغييرات قليلة، وتعديلات طفيفة)[42].

("وقد كانت مقامات الحريريّ - بالخصوص - ذات أهمّيّة كبرى عند المغاربة والأندلسيّين؛ حفظوها وشرحوها واقتبسوا منها وَرَوَوْهَا عن أشياخهم كما يروون كتب الفقه والحديث واللّغة بطريقة الإسناد المعهودة عندهم، وكان لها تأثير كبير في الأساليب الأدبيّة والرّسائل الرّسميّة والخطب المنبريّة")[43].

تأثير الهمذانيّ والمقامة في الآداب العالميّة:

---

41 شوقي ضيف: المقامة، ص: 30، 31.

42 شوقي ضيف: المقامة، ص: 31.

43 بوجمعة جمّي: خطاب المقدّمات في شروح - مخطوطة - لما أبدعه الحريريّ من مقامات، مجلّة جذور، مجلد 1، جزء 1، فبراير 1999، ص: 241.

(لقد وجدنا أنّ هنالك طريقين لانتقال المقامات إلى أدباء الأمم الأخرى:

الأوّل: طريق مباشر: ويشمل إيران (بلاد فارس) و(الهند) بحكم انتشار الإسلام هناك، وقرب هاتين الدّولتين من بلاد العرب، وتوافد أهلها للذّهاب إلى // الدّراسة في المدن العربيّة، إضافة إلى أنّ بعض المسلمين هنا هم من أصل عربيّ، وتشمل كذلك الأندلس (أسبانيا الحاليّة).

الثّاني: الطّريق غير المباشر: نقول يكاد يكون غير مباشر، لأنّ أصوله غير واضحة، وتشمل دول أوربّا وبعض الدّول المجاورة لها، وهي بدورها متأثّرة بأدب إسبانيا، المتأثّر بدوره بالأدب العربيّ...)[44].

(عُرفت المقامة منذ وقت مبكّر في الأوساط الفارسيّة، فقد ألّف القاضي حميد الدّين أبو بكر بن عمر البلخيّ ثلاثا وعشرين مقامة على نسق مقامات الحريريّ، وأتّ/ها سنة 551هـ. وكذلك عرفت في الأوساط اليهوديّة والمسيحيّة الشّرقيّة، فترجموها وصاغوا على مثالها باللّغتين العبريّة والسّريانيّة)[45].

(ينبغي أن نلاحظ أنّ تأثيرها [المقامات] كان محدودا، وخاصّة إذا وازنّا بينها وبين ألف ليلة وليلة مثلا، لأنّ الأخيرة ذات موضوع قصصيّ واضح، ولذلك أقبل عليها الأوربيّون وتأثّروا بها تأثّرا واسعا، وخاصّة من نواحيها الخرافيّة الخياليّة. أمّا المقامات فمن الصّعب أن نتبيّن أثرها، لأنّ القصّة ليست عمادها، إنّما مادها الأسلوب وما يحمل من زخارف السّجع والبديع، ومع ذلك يمكن أن نرى أثرها في بعض القصص الإسبانيّ الذي يصف لنا حياة المشرّدين والشّحّاذين. ولعلّ من الطّريف أنّ لهذا القصص عندهم بطلا يُسمّى بيكارون (Picaroon) وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندريّ عند بديع الزّمان، وأبا زيد السّروجيّ عند الحريريّ)[46].

ترجمتها:

(إذا رجعنا إلى مقامات الحريريّ وجدنا المستشرقين يُعنون بها، فتُترجم منها نماذج إلى اللاّتينيّة، وتُترجم إلى الألمانيّة والإنجليزيّة، وهذا معناه أنّها وُضعت تحت أعين القوم ليقرءوها ويتأثّروا بها)[47].

---

[44] عبّاس هاني الچرّاح: المقامات العربيّة وآثارها في الآداب العالميّة، ص: 17، 18.

[45] شوقي ضيف: المقامة، ص: 10.

[46] شوقي ضيف: المقامة، ص: 11.

[47] شوقي ضيف: المقامة، ص: 11.

المراجع:

1) المتكلم في السرد العربي القديم، أعمال ندوة بإشراف محمّد الخبّو ومحمّد نجيب العمّاميّ، كلّية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منّوبة، تونس، 2011.

2) أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ: مقامات الزّمخشريّ، دار الكتب العلميّة، ط 1، بيروت، 1982.

3) بوجمعة جمّي: خطاب المقدّمات في شروح – مخطوطة – لما أبدعه الحريريّ من مقامات، مجلّة جذور، مجلد 1، جزء 1، فبراير 1999.

4) خالد بن محمد الجديع: الدراسات السردية الجديدة قراءة المقامة أنموذجا، مركز بحوث كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2007.

5) شوقي ضيف: المقامة، دار المعارف، ط 3، مصر.

6) عبّاس هاني الجرّاح: المقامات العربيّة وآثارها في الآداب العالميّة، مؤسّسة دار الصّادق الثّقافيّة طبع نشر توزيع، الرّضوان للنّشر والتّوزيع، ط 1، الأردن، 2014.

7) عبد الفتّاح كيليطو: المقامات السّرد والأنساق الثّقافيّة، ترجمة عبد الكبير الشّرقاويّ، دار توبقال للنّشر، ط 2، المغرب، 2001.

8) عبد الفتاح كيليطو: كتاب الغائب دراسة في مقامة للحريري، دار توبقال للنّشر، ط 3، المغرب، 2007.

9) عبد المنعم خفّاجي: أبو الفتح الإسكندريّ بطل مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ وشخصيّته المجهولة، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط 1، القاهرة، 1996.

10) عمر فرّوخ: الرّسائل والمقامات عبد الحميد الكاتب بديع الزّمان الحريريّ، منشورات مكتبة منيمنه، ط 2، بيروت، 1950.